الباب التاسع عشر

في عرض الرّبِّ تعالى سلعة الجنة على عباده، وثمنها الذي طلبه منهم وعقد التبايع الذي وقع بين المؤمنين وبين ربهم

قال تعالى : ﴿ إنَّ الله اشتَرىٰ من المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لَهُم الجنةَ يُقاتلونَ في سبيلِ الله فَيقتُلونَ ويُقتَلون وعْداً عليهِ حقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومن أوفَى بعهدِهِ مِنَ الله فاستبشرُوا ببيعكم الذي بايعتمْ بهِ وذلكَ هو الفَوزُ العظيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] . فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم، بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد، وأكّده بأنواع من التأكيد .

أحدها : إخباره به سبحانه بصيغة الخبر المؤكد بأداة إنَّ .

الثاني : الإخبار بذلك بصيغة الفعل الماضي، الذي قد وقع وثبت واستقر .

الثالث : إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع .

الرابع : أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعداً لا يخلفه ولا يتركه .

الخامس : أنه أتى بصيغةِ [على] التي للوجوب، إعلاماً لعباده ، بأن ذلك حق عليه ، أحقه هو على نفسه .

السادس : أنه أكّد ذلك بكونه حقاً عليه .

السابع : أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء ، وهي التوراة ، والإنجيل، والقرآن .

الثامن : إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه .

التاسع : أنه سبحانه أمرهم أن يستبشروا[1] بهذا العقد، ويبشر به بعضهم بعضاً بشارة من قد تَمَّ له العقد ولزم ، بحيث لا يثبت فيه خيار، ولا يعرض له ما يفسخه .

العاشر : أنه أخبرهم إخباراً مؤكّداً يؤكد بأن ذلك البيع الذي بايعوا به هو الفوز العظيم ، والبيع هاهنا : بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن، وهو الجنة .

وقوله : ﴿ **بايعتُم به** ﴾ أي : عاوضتم وثامنتم به .

ثمّ ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذين وقع لهم العقد، وتمّ لهم دون غيرهم ، وهم التائبون مما يكره ، العابدون له بما يحبّ ، الحامدونَ له على ما يحبون وما يكرهون ، ﴿ **السَّائحون** ﴾ فسرت الساحة : بالصيام ، وفسرت : بالسفر في طلب العلم، وفسرت : بالجهاد، وفسرت : بدوام الطاعة . والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته ، والإنابة إليه ، والشوق إلى لقائه ، ويترتب عليها كلّ ما ذكر من الأفعال. ولذلك وصف [الله سبحانه] نساء النبي ﷺ اللاتي لو طلق أزواجه بدّله بهن ، بأنهن ﴿ **سائحات** ﴾، وليست سياحتهن جهاداً، ولا سفراً في طلب علم، ولا إدامة صيام، وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله [تعالى] وخشيته، والإنابة إليه وذكره .

وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين : هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب، والحمد والسياحة قرينين هذا الثناء عليه بأوصاف كماله، وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله .

كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينين في صفة الأزواج فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب .

---

(١) في الأصل : يبشروا .

وجعل الإسلام والإيمان قرينين فهذا علانية، وهذا في القلب، كما في «المسند» عنه ﷺ : « الإسلامُ علانية، والإيمان في القلبِ »[1] .

وجعل القنوت والتوبة قرينين ، فهذا فعل ما يحب، وهذا ترك ما يكره .

وجعل الثيوبة والبكارة قرينين ، فهذه قد وطئت وارتاضت وذللت صعوبتها، وهذه روضة أُنُفٌ[2] لم يُرتع فيها بعد .

وجعل الركوع والسجود قرينين ، وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرينين ، وأدخل بينهما الواو دون ما تقدم إعلاماً بأن أحدهما لا يكفي حتى يكون مع الآخر، وجعل ذلك قريناً لحفظِ حدوده، فهذا حفظها في نفس الإنسان وذلك[3] أمر غيره بحفظها . وأفهمت الآية: خطر النفس الإنسانية وشرفها،وعظم مقدارها، فإن السِّلعة إذا خفي عليك قدرها فانظر إلى المشتري لها من هو، وانظر إلى الثمن المبذول فيها ما هو؟ وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع ، فالسِّلعة النفس، والله سبحانه المشتري لها ، والثمن جنات النعيم ، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة، وأكرمهم عليه، وخيرهم من البشر، وأكرمهم عليه .

قَدْ هيؤوكَ لأَمْرٍ لَوْ فَطِنتَ لَه ... فَارْبَأْ بنفسِكَ أنْ تَرْعَىٰ مَعَ الهَمَلِ

وفي « جامع » الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ خافَ أدْلجَ، ومَنْ أدْلجَ بلغَ المنزلَ، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ غاليةٌ ، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ الجنةُ »[4] قال : هذا حديث حسن غريب.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/١٣٥ ، ولفظه : « الإسلام علانية ، والإيمان في القلب، قال : ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات، قال : ثم يقول : التقوى هاهنا ، التقوى هاهنا » ، وعزاه في « الكنز » (١٩) إلى ابن أبي شيبة، و (٤٤) وزاد نسبته إلى النسائي، وأبي يعلى وصحح، كلهم من حديث أنس رضى الله عنه.

(٢) الأُنُف : من الرياض التي لم يرعها ، أو لم يطأها أحد .

(٣) في هامش الأصل : وذاك .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) في صفة القيامة : باب (١٨) وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر .

وفي كتاب «صفة الجنة» لأبي نعيم من حديث أبان، عن أنس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: ما ثمن الجنة؟ قال: «لا إله إلا الله»[1]. وشواهد هذا الحديث كثيرة جداً.

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أنَّ أعرابياً جاء إلى رسول اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، دُلني على عملٍ إذا عملتُه دخلتُ الجنةَ. فقال : «تعبدُ الله [ولا] تشركُ به شيئاً ، وتقيمُ الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاةَ المفروضَة ، وتصومُ رمضانَ»قال : والذي نفسي بيده لا أزيدُ على هذا شيئاً أبداً ولا أنقصُ منه، فلما وَلَّى قال : « من سَرَّهُ أن ينظرَ إلى رجلٍ من أهلِ الجنةِ فلينظرْ إلى هذا »[2] .

وفي « صحيح » مسلم عن جابر رضي الله عنه : أتى النعمانُ بنُ قوقلٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فقال : يا رسولَ اللهِ أرأيتَ إذا صليتُ المكتوبة، وحرَّمتُ الحَرامَ، وأحللتُ الحلالَ، أدخلُ الجنةَ ؟ فقال النبيُّ ﷺ : «نعمْ»[3].

وفي «صحيح» مسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منْ ماتَ وهو يعلمُ، أن لا إلهَ إلا الله دخلَ الجنةَ»[4].

وفي « سنن » أبي داود ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : « سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : منْ كانَ آخرُ كلامِهِ : لا إلهَ إلَّا الله ، دخلَ الجنةَ »[5]

---

(١) في «صفة الجنة» (٥١)وأخرجه ابن عدي في «كامله» ٦/٢٣٤٧ وقال: وهو بيِّن الضعف، لضعف رواية موسى بن إبراهيم المروزي، وعزاه في «الكنز» (١٥٧) للديلمي مطولاً و(١٧٩٠) إلى ابن مردويه كلهم عن أنس، وعبد بن حميد في «تفسيره» عن الحسن مرسلاً.

(٢) أخرجه البخاري ٣/٢١٠ في الزكاة : باب وجوب الزكاة ، ومسلم (١٤) في الإيمان : باب (٤) بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة .

(٣) أخرجه مسلم (١٥) (١٦) و(١٨) في الإيمان : باب (٤) بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة .

(٤) أخرجه مسلم (٢٦) (٤٣) في الإيمان باب (١٠) الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

(٥) أخرجه أبو داود (٣١١٦) في الجنائز : باب التلقين ، والحاكم ١/٣٥١ وصححه ووافقه الذهبي

وفي « الصحيحين » عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أتاني آتٍ منْ ربي فأخبرني ـ أو قال ـ فبشرني : أنهُ منْ ماتَ من أمتكَ لا يشركُ باللهِ شيئاً دخلَ الجنةَ، قلتُ: وإن زنى وإن سرقَ؟ قال: وإنْ زنى وإنْ سرقَ»[1].

وفي « الصحيحين » من حديث عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « منْ قال : أشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه ، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وأنَّ الجنةَ حقٌّ، وأنَّ النارَ حقٌّ، أدخلهُ اللهُ من أيِّ أبوابِ الجنةِ الثمانيةِ شاءَ »[2].

وفي لفظٍ : « أدخلَهُ اللهُ الجنَّةَ على ما كانَ مِنْ عَمَلٍ »[3]

وفي « صحيح » مسلم : « أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أعطى أبا هريرةَ نعليه فقال : «اذهبْ بنعليَّ هاتين، فمنْ لقيتَ من وراءِ هذا الحائطِ يشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللَّه مستيقناً بها قلبُهُ، فبشرْهُ بالجنَّةِ»[4].

وقال روح بن عبادة، عن حبيب بن الشهيد، عن الحسن قال : « ثمنُ الجنةِ لا إله إلا الله »[5].

وروى أبو نعيم: من حديث أبي الزبير، عن جابر رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « لا يدخلُ أحداً منكم عملُه الجنة ، ولا يجيرهُ من النارِ، ولا أنا إلا بتوحيدِ الله [تعالى] »[6] وإسناده على شرط مسلم، وأصل الحديث في الصحيح .

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٧) في الجنائز : باب (١) من كان آخر كلامه لا إله إلاَّ الله ، ومسلم (٩٤) (١٥٣) في الإيمان باب (٤٠) من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة .

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣٥) في الأنبياء : باب (٤٧) ، ومسلم (٢٨) في الإيمان : باب (١٠) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٨) (٤٦) ولم يذكر: « من أي أبواب الجنة شاء » .

(٤) أخرجه مسلم (٣١) (٥٢) في الإيمان : باب (١٠) مطولاً.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٥٠).

(٦) أخرجه في «صفة الجنة» (٥٢)، ومسلم (٢٨١٧). في صفة المنافقين: باب لن يدخل أحد الجنة بعمله وفيه: «إلا برحمة من الله».

فصل

هـا هنا أمـر يجب التنبيه عليـه وهو : أن الجنـة إنما تـدخل بـرحمة الله [تعالى]، وليس عمل العبد مستقلاً بدخولها، وإن كان سبباً . ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله : ﴿ بما كنتُم تعملونَ ﴾، ونفىٰ رسول الله ﷺ دخولها : بالأعمال في قوله : « لنْ يدخلَ أحدٌ منكم الجنةَ بعملهِ » ولا تنافي بين الأمرين لوجهين :

أحدهما : ما ذكره سفيان وغيره قال : كانوا يقولون : النجاة من النار بعفو الله ، ودخول الجنة برحمته. واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال، ويدل على هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي سيأتي إن شاء الله [تعالى]،«أنَّ أهل الجنةِ إذا دخلوها ، نزلوا فيها بفضلِ أعمالِهم»[1] ، رواه الترمذي .

والثاني : أن الباء التي نفت الدخول هي باء المعاوضـة التي يكون فيهـا أحد العوضين مقابلاً للآخر ، والبـاء التي أثبتت الدخـول هي باء السببيـة التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره ، وإن لم يكن مستقلاً بحصوله . وقد جمع النبي ﷺ بين الأمرين في قوله :« سَدِّدُوا وقارِبُوا وابشرُوا، واعلموا أنَّ أحداً منكم لنْ ينجوَ بعمله قالوا : ولا أنتَ يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يَتغمدَني اللهُ برحمتهِ »[2] .

ومن عـرف الله [تعالى] ، وشهـد مشهد حقـه عليـه، ومشهـد تقصيـره وذنوبه، وأبصر هذين المشهدين بقلبه عرف ذلك وخبره وجزم به . والله سبحانه وتعالى المستعان .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٩) في الجنة : باب في سوق الجنة .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٧) في الرقاق : باب القصد والمداومـة على العمل ، ومسلم (٢٨١٨) في المنافقين : باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، كلاهما عن عائشة رضي الله عنها .